السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(٤٤)

« اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ سَكَرَاتِ المَوْت ! »

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

وَلَمَّا دَخَلَت السَّنَةُ الحَادِيَةَ عَشْرة لِلْهِجْرَةِ كَانَ أَهَمَّ حَدَثٍ وَقَعِ فِيْهَا هُوَ انتقالُ رَسُولِ الله ﷺ إلى الرَّفِيْقِ الأَعْلَىٰ ، فَتَعَالَوا يَا أَحِبَّتِي البَرَاعِمَ ، - وَبَعْدَ أَنْ عِشْنَا أَجْمَل لَحَظَاتِ العُمْرِ مَعَ سِيْرَةِ المُصْطَفىٰ ﷺ - لِنُتَابِعَ ذَلِكُمُ الحَدَثَ الأَلِيم ، سَائِلِيْنَ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ أَنْ يَكْتُبَ لَنَا الحجَّ إلى بيت اللهِ الحَرَام ، والصَّلاةَ في المسْجِدِ النَّبَوِيِّ وزِيَارَةَ قَبْرِ المُصْطَفَىٰ في الدُّنيا ، وشَفَاعَتَهُ لَنَا في الآخِرة ، آمين .

* * *

عَلاَمَاتُ دُنُوِّ الأَجَلِ !!!

لَقَدْ ظَهَرَتْ بَعْضُ العَلامَاتِ الَّتِي يُفْهَمُ مِنْ خِلالِهَا اقتِرَابُ أَجَلِ رَسُوْل اللهِ ﷺ ، مِنْهَا :

ـ نُزُولُ سُورَةِ النَّصْرِ : قَالَتْ أُمُّ المؤمِنِيْن عائِشَةُ رَضي الله عَنْهَا : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ : « سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِه ، أَسْتَغْفِر اللهَ وأَتُوبُ إِلَيْهِ » .

قَالَتْ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِكَ ذَلِكَ .

فَقَالَ : « خَبَّرَنْيَ رَبِّي أني سَأَرىٰ عَلامَةً في أُمَّتِي ، فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ : سُبْحَانَ اللهِ

وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، فَقَدْ رَأَيْتُها : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[1] . فَتْحُ مَكَّةَ ، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[2] .

ـ خُرُوجُهُ ﷺ إلىٰ البَقِيْعِ ، وَاسْتِغْفَارُهُ لأَهْلِهِ والشُّهَدَاءِ :

فَعَنْ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلىٰ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ : بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ مِنْ جَوْفِ اللَّيلِ ، فَقَالَ : « يَاأَبَا مُوَيْهِبَةَ! إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأَهْلِ هَذَا البَقِيْعِ ، فَانْطَلِقْ مَعِي » .

فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَالَ : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ المَقَابِرِ! لِيَهْنِىءْ لَكُمْ مَا

---

(١) سورة النصر : ١ .

(٢) سورة النصر : ٢ـ٣ .

أَصْبَحْتُم فِيْهِ مِمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ فِيْهِ ، أَقْبَلَتِ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ ، يَتْبَعُ آخِرُهَا أَوَّلَهَا ، الآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الأُوْلَىٰ » .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ : « يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ! إِنِّي قَدْ أُوتِيْتُ مَفَاتِيْحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالخُلْدِ فِيْهَا ، ثُمَّ الجَنَّـة ، فَخُيِّـرْتُ بَيْـنَ ذَلِـكَ وَبَيْـنَ لِقَـاءِ رَبِّـي والجَنَّة » .

قَالَ : فَقُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي ، فَخُذْ مَفَاتِيْحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالخُلْدَ فِيْهَا ثُمَّ الجَنَّة ، قَالَ : « لا! والله يـا أبـا مُـويهبـةَ! لَقَـدِ اخْتَـرْتُ لِقَـاءَ رَبِّـي وَالجَنَّةَ » .

ثُمَّ اسْتَغْفرَ لأَهْلِ البَقِيْعِ . ثُمَّ انْصَرَفَ إلى أُحُد ، فَصَلَّىٰ عَلَىٰ الشُّهَداءِ ، وَدَعَا الله لَهُمْ ، ثُمَّ رَجَعَ مَعْصُوب الرَّأْسِ!!!

.. وَمَرِضَ الحَبِيْبُ ﷺ

وَدَخَلَ المُصْطَفَىٰ ﷺ عَلَى عَائِشَةَ ، فَوَجدَهَا مَعْصُوبَةَ الرَّأْسِ تَقُوْلُ : وَارَأْسَاهُ! فَقَالَ : « بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ! » .

ثُمَّ أُصِيْبَ بِالحُمَّىٰ ، وَارْتَفَعَتْ حَرَارَةُ جَسَدِهِ الشَّرِيْفِ ، وَتَوَّعَكَ تَوَعُّكاً شَدِيْداً .

وَاسْتَاذَنَ زَوْجَاتِهِ الطَّاهِراتِ في أَنْ يُمَرَّض في حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهُنَّ جَمِيْعاً ، فَأَذِنَّ لَهُ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ دَخَلَتْ عَلَيْهِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ الزَّهراء ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، فَرَحَّبَ بِهَا ، وَأَجْلَسَهَا عَنْ

يَمِيْنِهِ ، ثُمَّ هَمَسَ في أُذُنِهَا ، فَبَكَتْ ، فَنَظَر إلى وَجْهِهَا ، ثُمَّ هَمَسَ في أُذُنِهَا ، فَضَحِكَتْ! فَلَمَّا سَأَلَتْهَا عَائِشَةُ عَنْ ذَلِكَ ، قَالَتْ :

أَمَّا الأُولى ، فَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّ أَجَلَهُ قَدِ اقْتَرَبَ « فَاتَّقِي الله يَا فَاطِمَةُ واصْبِرِي ، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ » .

وَأَمَّا الثَّانِيَة فَقَدْ قَالَ لِي : « يَا فَاطِمَةُ أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ المُؤْمِنِيْنَ ؟ ! » .

ثُمَّ نَظَرَ إلى جَمْعٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، ثُمَّ قَالَ : « مَرْحَباً بِكُمْ ، وَحَيَّاكُمُ اللهُ! وَحَفِظَكُمُ اللهُ! آوَاكُمُ اللهُ! وَنَصَرَكُمُ اللهُ! رَفَعَكُمُ اللهُ! هَدَاكُمُ اللهُ! رَزَقَكُمُ اللهُ! وَأَسْتَخْلِفُهُ عَلَيْكُم ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيْرٌ مُبِيْنٌ! أَلا تَعْلُوا عَلىٰ اللهِ في عِبَادِهِ ، وَبِلادِهِ ، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِيْ ، وَلَكُمْ :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

ثُمَّ قَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ : « قَدْ دَنَا الأَجَلُ وَالمُنْقَلَبُ إلى اللهِ وَإلى سِدْرَةِ المُنْتَهىٰ وَإلى جَنَّة المَأْوىٰ ، والكَأسِ الأَوْفَىٰ ، والرَّفِيْقِ الأَعْلَىٰ » .

* * *

(١) سورة القصص : ٨٣ .

هَيَّا إِلَىٰ القِصَاصِ مِنَ الرَّسُوْلِ ؟!

وَفي اليَوْمِ الثَّانِي طَلَبَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الفَضْلِ بْنِ العَبَّاسِ أَنْ يُسَاعِدَهُ لِيَخْرُجَ إلى النَّاسِ ، فَلَمَّا وَقَفَ بِالقُرْبِ مِنَ المِنْبَرِ الشَّرِيْفِ ، قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ دَنَا لِيْ حُقُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ ، فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْراً فَهَذَا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ ، أَلا وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضاً فَهَذَا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ ، وَمَنْ كُنْتُ أَخَذْتُ مِنْهُ مَالاً فَهَذَا مالِي فَلْيسْتَقِدْ مِنْهُ!!! » .

* * *

مِنْ آخِرِ وَصَايَاهُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ

وَكَانَتْ آخِرُالأُمُوْرِ الَّتِي وَصَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهَا :

نَهْيُهُ عَنِ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ مَسْجِداً : « قَاتَلَ اللهُ قَوْماً اتَّخَذُوا قُبُوْرَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » .

كَذَلِكَ : أَمْرُهُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ بِتَطْهِيْرِ الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ مِنَ المُشْرِكِيْنَ :

« أَخْرِجُوا المُشْرِكِيْنَ مِنْ جَزِيْرَةِ العَرَبِ ، وَأَجِيْزُوا الوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيْزُهُمْ » .

ثُمَّ اشْتَدَّ الوَجَعُ بِرَسُولِ اللهِ أَكْثَرَ ، فَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّي بِالمُسْلِمِيْنَ إِمَاماً ، فَصَلَّىٰ سَبْعَ

عَشْرَةَ صَلاةً ، حَتَّىٰ إِذَا مَا كَانَ يَوْمُ الإِثْنَيْنِ ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ عَاصِبَاً رَأْسَهُ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ في المِحْرَابِ ، فَلَمَّا عَلِمَ بِخُرُوجِ الرَّسُولِ ، تَرَاجَعَ عَنْ مَكَانِهِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : « صَلِّ يَا أَبَا بَكرٍ » ، فَصَلَّىٰ أَبُو بَكْرٍ إِمَاماً ، وَصَلَّىٰ الرَّسُولُ إلى جَنْبِهِ قَاعِدَاً!

* * *

« ...اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ المَوْتِ! »

وَهَكَذا ، دَخَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ ، وَمَلَكُ المَوْتِ ، وَكَانَتْ سَاعَةُ الوَفَاةِ!

فَرَاحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُدْخِلُ يَدَيْهِ في المَاءِ وَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَهُوَ يَقُولُ : « لا إِلهَ إلا الله إِنَّ لِلْمَوتِ سَكَرَاتٍ » .

ثُمَّ يَدْعُو الله قَائِلاً : « اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ سَكَرَاتِ المَوْتِ » .

وَلَمَّا رَأَتْهُ فَاطِمَةُ رَضِيَ الله عَنْهَا وَهُوَ يُعَانِي سَكَرَاتِ المَوْتِ ، تَأَثَّرَتْ لِذَلِكَ وَقَالَتْ : وَا كَرْبَ أَبَاه! فَقَالَ لَهَا : « لَيْسَ عَلَىٰ أَبِيْكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ! » .

وَكَانَتْ آخِرُ كَلِمَاتِهِ : « بَلِ الرَّفِيْقَ الأَعْلىٰ مِنَ الجَنَّـةِ » : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[1] .

* * *

فَوَدَاعاً... وَإِلى لِقَاءٍ

وَهَكَذا كَانَتْ وَفَاتُهُ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ في حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ في شَهْرِ رَبِيْعٍ الأَوَّلِ ، وَكَانَ عُمُرُهُ ثَلاثاً وَسِتِّيْنَ سَنَةً .

وَأُصِيْبَ المُسْلِمُونَ بِالذُّهُولُ الشَّدِيْدِ ، حَتَّىٰ

---

(١) سورة النساء : ٦٩ .

إنَّ عُمَرَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ رَاحَ يَصِيْحُ بَيْنَ النَّاسِ : مَنْ قَالَ إنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ عَلَوْتُهُ بِسَيْفِي هَذَا! .

لَكِنَّ الحَقِيْقَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ـ نَفْسِي لَهُ الفِدَاءُ ـ قَدْ سَرَتْ عَلَيْهِ سُنَّةُ الله في هَذَا الْكَوْنِ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ (١) .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ . (٢) .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (٣) .

فَغَسَّلَه الصَّحَابَة ، وَكَفَّنُوه ، وَصَلَّوا عَلَيْهِ ، وَدَفَنُوه في مَوْضِعِ سَرِيْرِهِ في حُجْرَةِ عَائِشَةَ ،

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٨٥ .

(٣) سورة الزمر : ٣٠ .

وَحَزِنُوا عَلَيْهِ وَبكَوْهُ ، وَنَحْنَ نُرَدِّدُ مَعَ الزَّهْراءِ رَضِيَ الله عَنْهَا وَهِيَ تَبْكِيه صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَليه :

مَاذَا عَلَىٰ مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ

أَنْ لا يَشُمَّ مَدَىٰ الزَّمَانِ غَوَالِيَا

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ لَوْ أَنَّها

صُبَّتْ عَلَى الأَيَّامِ عُدْنَ لَيَالِيَا

وَآخِرُ دَعْوانا أنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين

* * *